بنو المزلّق: أسرة من أعيان دمشق خلال القرن التاسع الهجري

د. إبراهيم محمد حامد سليمان
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم–جامعة المنيا
أستاذ مشارك – جامعة أم القرى

ملخص:

تبوأت طبقة التجار مكانة مميزة داخل المجتمعين المصري والشامي في العصر المملوكي. والواقع أن هذا الأمر إنما يعود بالدرجة الأولى إلى الأهمية الكبيرة التي كان يمثلها أفراد تلك الطبقة بالنسبة للسلطة الحاكمة؛ فهم كانوا بمثابة المصدر الرئيس الذي يدر الأموال داخل خزائن هؤلاء السلاطين، وقد ظهرت أهمية تلك الطائفة بصفة خاصة في وقت الأزمات السياسية والاقتصادية داخل الدولة.

ورغم التغيرات التي حدثت خلال حكم سلاطين دولة المماليك البرجية، والتي أدت إلى اختفاء نجم "تجار الكارم"، بصفة خاصة في عهد السلطان الأشرف برسباي، الذي اتخذ العديد من الاجراءات التي مكنته من احتكار تجارة التوابلوغيرها من السلع الأخرى، إلا أن فئة جديدة من التجار ظهرت تحت مسمى "وكلاء السلطان في تجارة التوابل"، وقد حملوا لقب "الخواجكية".

وتعد أسرة "بني المزلق" واحدة من أهم الأسر التجارية التي ظهرت في بلاد الشام، التي كانت تتاجر لحساب السلطة المملوكية. وقد نجح أفراد هذه الأسرة في إقامة شبكة تجارية متشعبة، لم تقتصر على منطقة الشرق الأوسط وبلاد الهند فحسب، وإنما نجحوا في الدخول في علاقات تجارية مميزة مع تجار الغرب الأوربي– وفي مقدمتهم البنادقة– القادمين بسفنهم التجارية إلى السواحل الشامية. هذا الدور التجاري المهم الذي لعبته هذه الأسرة مكنها من تبوأ مكانة كبيرة داخل المجتمع الدمشقي، كما سمح لهم بإقامة علاقات مميزة مع السلاطين المماليك، وبفضل تلك العلاقات نجحوا في شغل عدد من الوظائف المهمة في الدولة؛ مثل نظر الجيش ونظر الجوالي وكتابة السر وقضاء الشافعية.

Banu Muzalliq: an elite family in Damascus during the 9th century AH

The class of merchants occupied a very important place in Mamluk society. In fact, the sultans believed that these merchants were the main source of revenue for the state, especially during times of turbulence and hardship. That's why these sultans favored the rise of merchants and moved closer to them. In addition, the class of great merchants, who were considered among the elite, had a great wealth, thanks to their lucrative trade, which increased their influence and prestige in society, so that they were often on the same rank with the Mamluk princes.

In this context, this study attempts to shed light on one of the most important commercial families that appeared in Damascus in the 9th century AH, known as the "Banu Muzalliq family", by introducing the founder and members of this family. Then, we talk about the important commercial role played by the members of this family, as principal traders of the Mamluk sultans. We reveal, at the same time, the nature of the relations linking Banu Muzalliq with the western merchants present in Damascus during this period. The last part of this study focuses on the fruits that Banu Muzalliq had succeeded in collecting, thanks to the many services they had provided to the Mamluk authorities; they managed to hold many jobs in the Mamluk state, either religious, civil or even military.

تميز المجتمع في العصر المملوكي بكونه مجتمعًا طبقيًّا، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها، فضلا عن نظرة الدولة لها، ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تلتزم به من واجبات، وهو الأمر الذي انعكس بوضوح على كافة مظاهر الحياة آنذاك. ورغم اختلاف المؤرخين والباحثين في تقسيمات تلك الطبقات وعددها، إلا إن الشيء المتفق عليه هو أن طبقة المماليك العسكرية الحاكمة كانت تأتي- بطبيعة الحال- في المقدمة؛ فقد كانوا هم أصحاب السيادة والنفوذ، ولهم كل الحقوق والامتيازات، كما أنهم- بحكم كونهم غرباء عن هذه البلاد وأهلها- ظلوا يشكلون طبقة منعزلة عن السكان المحليين، الذين- بحسب رؤيتهم- هم أقل منهم درجة، ولا ينبغي أن يشاركوا في أمور الحكم.

وفي المقابل، كان يقبع في مؤخرة السلم الطبقي جمهور من صغار العمال والفلاحين والباعة والسوقة والسَقّائين، وهم من يمكن تسميتهم بالعوام، الذين اكتظت بهم المدن المصرية والشامية في العصر المملوكي. وبصفة عامة، فإن هؤلاء العوام كانوا يعيشون في ضيق وعُسْر، مقارنة بالمماليك، وغيرهم من الطبقات الأخرى المُنَعَّمة. وما بين هاتين الطبقتين المتمايزتين كان تأتي طائفة أخرى من السكان المحليين، نجحت في أن تتبوأ منزلة ومكانة كبيرة لدى السلطات المملوكية في كثير من الأحيان، كما أنها -من ناحية أخرى- وجدت التقدير والاحترام من قبل العامة. هذه الفئة كانت تتشكل من كبار رجال العلم والدين (أهل العمامة)، وكبار التجار[1].

[1] سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربي-القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٥ وما بعدها؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية-القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣٢٠-٣٢١.

أما فيما يخص طبقة كبار التجار – وهو ما يهمنا في هذا البحث – فقد احتلوا مكانة مميزة لدى سلاطين المماليك، الذين شعروا بأن هؤلاء التجار هم المصدر الأساسي الذي يمد الدولة بالمال، لاسيما في ساعات الحرج والشدة، فعمدوا إلى تقريب التجار منهم، واصطفوا منهم ندماء وجلساء؛ وبذلك تمتعت تلك الطبقة باحترام كبير، ومكانة بارزة في مختلف المدن المملوكية، حتى أنه إذا ما أريد مدح شخص كان يقال أنه "من بيت تجارة ووجاهة". وكانت طبقة كبار التجار – الذين يدخلون تحت مسمى الأعيان[٢] – تمتلك ثروات كبيرة بفضل تجارتهم المربحة؛ وهو الأمر الذي أدى إلى زيادة نفوذهم وهيبتهم داخل المجتمع، بحيث إنهم غالبا ما كانوا يتساوون في المكانة والمنزلة مع الأمراء. ومن المزايا التي منحت لهم آنذاك السماح لهم بحضور الاحتفالات الرسمية، بالإضافة إلى مشاركاتهم في أمور وقضايا الدولة المهمة، هذا فضلا عن تقلدهم لعدد من الوظائف الإدارية، التي لم تكن متاحة لغيرهم من المدنيين [٣].

انطلاقا مما سبق، فإن هذا البحث يأتي كمحاولة لالقاء الضوء على واحدة من أهم الأسر التجارية التي ظهرت في مدينة دمشق خلال القرن التاسع الهجري، والتي عرفت بأسرة "بني المزلق"، وذلك من خلال التعريف بنسب هذه الأسرة ومؤسسها وأهم أفرادها، ثم – في محور آخر – الحديث عن الدور التجاري المهم الذي لعبه أفراد هذه الأسرة، بوصفهم الوكلاء التجاريين الرئيسين لسلاطين المماليك، بالإضافة لذكر طبيعة العلاقات التي ربطت بينهم وبين التجار الغربيين الموجودين بدمشق في تلك الفترة، وذلك اعتمادا على ما ورد من وثائق وخطابات في الأرشيف

---

[2] يذكر القلقشندي في أحد المراسيم الصادرة من السلطات المملوكية لكبير التجار شمس الدين محمد بن المزلق أن من الألقاب التي نعت بها ابن المزلق: "عين الأعيان، كبير الخواجكية، سفير الدولة، مؤتمن الملوك والسلاطين". انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، مطبعة دار الكتب المصرية–القاهرة، ١٩٢٢م، ١٣/٤٠.

[3] سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٤١–٤٢؛ ايرا لابدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، (نقله إلى العربية) على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع–بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٣٩، ١٩٨.

البندقي. ثم يأتي المحور الأخير متحدثا عن الثمرة التي نجح بنو المزلق في قطفها من وراء الخدمات الكثيرة التي قدموها للسلطة المملوكية؛ فقد نجحوا في تقلد عدد من الوظائف المهمة داخل الدولة، مثل نظر الجيش، ونظر الجوالي، وكتابة السر، وإمارة جدة، وقضاء الشافعية.

١. نسب الأسرة وأفرادها:

شمس الدين محمد بن علي بن أبي بكر بن محمد المعروف بابن المزلق: هو كبير التجار الدمشقيين، وإليه تنسب هذه الأسرة. ولد بمدينة حلب، ثم انتقل مع أسرته للإقامة بدمشق، وهي المدينة التي شهدت نشأته، ومنها بدأت تذيع شهرته [٤]. ويرجح النعيمي أن مولده كان عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وأن أباه كان يعمل لبانا، "أدركه جماعة وهو يباشر ملبنته عند جامع يلبغا". ولما أصبح شابًّا اشتغل ابن المزلق بالتجارة، وهي التي حقق من ورائها أرباحًا طائلة، حتى أنه أصبح من أكبر أغنياء المدينة [٥].

وقد عرف شمس الدين بصلاحه وأخلاقه الطيبة ومآثره الكثيرة ببلاد الشام؛ فقد قام ببناء عدة خانات[٦] في الطريق ما بين بلاد الشام ومصر، بالقنيطرة وجسر يعقوب والمنية وعيون التجار، وقد بلغت قيمة ما أنفقه على عمارة تلك الخانات ما يزيد على مائة ألف دينار، "وكل هذه الخانات فيها الماء، وجاءت في غاية الحسن، ولم يسبقه أحد من الملوك والخلفاء بمثل ذلك" [٧]. وقد تكفل شمس الدين كذلك بتوفير الطعام للمسافرين ولدوابهم داخل تلك الخانات، التي

---

4 السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل-بيروت، ١٩٩٢م، ٨/١٧٣-١٧٤.

5 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، (أعد فهارسه) إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠م، ٢/٢٢٣.

6 الخان: لفظ فارسي، دخل إلى العربية في العصر الإسلامي، وهو يعني المنزل الكبير، أو الفندق الذي ينزل فيه التجار، ويعرضون فيه بضائعهم. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٩٦م، ص ١٥٧.

7 النعيمي، المصدر السابق، ٢/٢٢٤.

كانت تشتمل على مسجد، وعدد من المحلات، وإسطبل، هذا بالإضافة إلى حجرات لإقامة المسافرين[٨]. كما أن ابن المزلق قام بإصلاح كثير من الطرقات، وأوصى قبيل وفاته بأن يخصص ثلث ماله كوقف على عمارة الخانات، وأن يوزع جزء منه على الفقراء بمكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبيت المقدس [٩].

ومكانة شمس الدين ومنزلته الكبيرة يمكن تلمسها من خلال الكلمات التي يصفه بها النعيمي قائلا: "وكان رحمه الله تعالى رجلا من رجال الدهر، حسن الكلام، له جرأة وإقدام، وجرى له أمور ومخاصمات مع جماعات من الحكام، واسمه مشهور في الممالك كلها، يكاتب ملوك الأطراف ويقضون حوائجه ويهاديهم، وكلمته نافذة عندهم، وكذلك العربان كانوا يراعونه ويحفظون متاجره" [١٠]. كما وصفه ابن اياس بأنه "كان فيه الخير والمعروف"[١١]. وقد توفي شمس الدين في شهر جمادى الأولى سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، وكان قد تجاوز الثمانين من عمره، وصلي عليه بالجامع الأموي،

---

[8] K. Cytryn-Silverman, The Road Inns (Khans) in Bilad al-Sham, Oxford, 2010, p. 144, 149.

[9] السخاوي، المصدر السابق، ١٧٤/٨؛ السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، الجزء الأول، (تحقيق) نجوى مصطفى كامل، لبيبة إبراهيم مصطفى، (مراجعة) سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية-القاهرة، ٢٠٠٢م، ٢٤٣/١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المجلد التاسع، (تحقيق) محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير-بيروت، ١٩٩٣م، ٣٨٣/٩.

[10] النعيمي، المصدر السابق، ٢٢٤/٢.

[11] ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ١٩٨٣-١٩٨٤، ٢٤٣/٢.

ودفن بتربته خارج باب الجابية[١٢]. ونظرًا لمكانته وصلاحه، فقد شهد جنازته كثير من الدمشقيين، وكان يتقدمهم نائب المدينة وأعيانها [١٣].

سراج الدين عمر بن محمد: ولد عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م بمدينة دمشق، ونشأ بها "في رفاهية ونعمة"، وقد أتم حفظ القرآن الكريم في صغره. سلك طريق أبيه في الاشتغال بالتجارة، وحقق فيها شهرة كبيرة، حتى أن السخاوي يذكر أنه كان يلقب "بالجناب العالي الخواجكي[١٤]، ملجأ الفقراء والمساكين" [١٥]. كما أن ابن حجر العسقلاني يصفه بأنه "كبير التجار بدمشق" [١٦]. له كثير من أعمال البر والخير؛ من ذلك قيامه بإعادة عمارة أحد العيون داخل مكة في شهر رمضان عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م، وقد أنفق كثيرا من الأموال في هذا الأمر. والواقع أن هذه العين

---

[12] يعد باب الجابية من الأبواب الأصلية القديمة لمدينة دمشق، ويرجع بناؤه إلى العهد الروماني. ويقع هذا الباب من الناحية الغربية لسور المدينة، ويرجح المؤرخون العرب أن تسمية باب الجابية نسبة إلى قرية الجابية، "لأن الخارج إليها يخرج منه لكونه مما يليها". وكان هذا الباب يشتمل على ثلاثة أبواب: الأوسط منها كبير، ومن جانبيه بابان صغيران. كما كانت هناك العديد من الأسواق الممتدة من باب الجابية إلى الباب الشرقي. أنظر: قتيبة الشهابي، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، منشورات وزارة الثقافة–دمشق، ١٩٩٦، ص ٥٢، ١١٤.

[13] السخاوي، الضوء اللامع، ١٧٤/٨؛ السخاوي، التبر المسبوك، ٢٤٣/١.

[14] يذكر القلقشندي أن كلمة "الخواجا" هي من ألقاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم، وهو لفظ فارسي ومعناه السيد، و"الخواجكي" بزيادة كاف نسبة إليه للمبالغة، وكانت الكاف في لغتهم تدخل مع ياء النسب. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٣/٦. كما أن لابدوس يشير إلى أن "الخواجا" هو لقب تشريف، يطلق عادة على التجار الذين هم في الخدمة الرسمية، وأنه خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي أصبح لقب "الخواجا" مألوفا أكثر فأكثر في مصر وبلاد الشام، "ودل انتشاره على استيعاب الدولة للعناصر المهمة في طبقة التجار الارستقراطية". انظر: لابدوس، المرجع السابق، ص ٢٠٥، ٢١٤.

[15] السخاوي، الضوء اللامع، ١٢٠/٦.

[16] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، (تحقيق) حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي–القاهرة، ١٩٧٢م، ٤٧١/٣.

كانت تمثل أهمية كبيرة لأهل مكة في ذلك الوقت؛ وذلك نظرًا لقلة المياه وندرتها داخل البلد الحرام، وهو الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعارها في الأسواق [١٧]. كما أن عين المياه بالمدينة المنورة لما خربت، وسأل السلطان الظاهر ططر[١٨] في إصلاحها، تصدق سراج الدين بمبلغ خمسمائة دينار لعمارتها [١٩]. وكانت وفاته بمدينة دمشق عام ٨٤١هـ/١٤٣٨م، بسبب الطاعون الذى فشى بالمدينة [٢٠].

شهاب الدين أحمد بن محمد: نشأ بمدينة دمشق، وعندما كبر اشتغل بالتجارة كباقي أفراد أسرته، وأصبح من أعيان التجار بها [٢١]. بيد أن ابن شاهين يذكر أن شهاب الدين "لم يداخل الدولة كأخيه" بدر الدين، ولم يكن لديه رغبة في تولى المناصب [٢٢]. وكان شهاب الدين من أهل الصلاح كوالده شمس الدين؛ له كثير من أعمال البر والصدقات، كما أنه أوقف العديد من المنشآت، منها المطبخ الموجود

---

17 المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٧م، ٢٣٥/٧؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ٤٧١/٣.

18 هو سيف الدين أبو سعيد الملك الظاهر ططر، أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه بمصر واعتقه واستخدمه. ولما آلت أمور اللطنة إلى الناصر فرج توجه ططر إلى حلب، "ولحق بأهل الشغب والعصيان"، ثم وصل في عهد المؤيد شيخ إلى مقدم ألف فأمير مجلس، ولما مات الملك المؤيد وتولى ابنه المظفر أحمد الحكم أصبح ططر هو المسئول الفعلي عن إدارة امور السلطنة، وتزوج أم المظفر، ثم خلع السلطان الصغير وأعلن نفسه سلطانا على البلاد، وذلك عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م. لكنه ما لبث أن توفي في العام نفسه، ويقال أن أم المظفر قد دست له السم لخلعه ابنها. انظر: الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين–بيروت، ٢٠٠٢م، ٢٦/٣.

19 السخاوي، المصدر السابق، ١٢٠/٦.

20 المصدر نفسه والصفحة نفسها.

21 المصدر نفسه، ١٤٧/٢.

22 ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل في ذيل الدول، (تحقيق) عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية–بيروت، ٢٠٠٢م، ٣٤٠/٦.

بباب البريد[٢٣]، وقد عرف بورعه وعبادته، وصحب عددًا من المشايخ ورجال العلم[٢٤]، واتصف بالسكينة والوقار. وكانت وفاة شهاب الدين في شهر المحرم عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، وصلي عليه بجامع دمشق، ثم دفن بتربة والده خارج باب الجابية، "وكانت جنازته حافلة، وكثر الثناء عليه" [٢٥].

بدر الدين حسن بن محمد: ولد بمدينة دمشق، ونشأ بها في رعاية أبيه، وكان كثير الأسفار والترحال بسبب التجارة، كما أنه جاور بمكة مرارا [٢٦]. وقد قدم بدر الدين إلى الديار المصرية مرات عديدة؛ وربما كان سبب ذلك هو قربه من السلطة بالقاهرة،

---

[23] باب البريد هو المدخل الغربي لمعبد جوبيتر الدمشقي الواقع بين سوق الحميدية والمسكية. وقد ظل بناء باب البريد الأصلي لهذا المعبد قائما حتى العهد الأيوبي، حينما قام الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد– بحسب بعض الروايات– بنقل حجارته وعمده إلى قلعة دمشق لإعادة بنائها. أما بخصوص الاشتقاق اللغوي للتسمية فإن لفظ "بريدا" بالسريانية يفيد معنى: الرسل والرسائل وخيل البريد، بيد أن الأقرب للصواب فيما يبدو هو أن هذا الاسم مأخوذ من السريانية "بريتا"، وتعني الساحة والعرضة والشارع. أنظر: قتيبة الشهابي، المرجع السابق، ص ٢٣٩، ٢٤٢.

[24] الواقع أنه كانت هناك روابط وثيقة ما بين طبقتي التجار والعلماء في ذلك الوقت، بل إن الأمور كانت مختلطة أحيانا ما بين هاتين الفئتين؛ فالعديد من العلماء قد اتخذوا في بعض الأحيان من التجارة عملا لهم يتكسبون منه، بينما كان العديد من التجارة عبارة عن طلاب علم أو حتى مدرسين وشيوخ أحيانا. وقد أشار لابدوس أنه من خلال دراسة عينة مكونة من ستمائة تاجر في العصر المملوكي، وجد منهم مائتان وخمسة وعشرون عالما، "ليسوا متفقين في التعاليم الدينية فحسب، بل منهم المدرسون الممارسون، والمشايخ، وأعضاء في مدارس الشريعة، وأئمة في المصلين، وواعظون". انظر: لابدوس: المرجع السابق، ص ١٨٤.

[25] السخاوي، المصدر السابق، ١٤٧/٢؛ البصروي، تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة ٨٧١هـ لغاية ٩٠٤هـ)، (تحقيق) أكرم العلبي، دار المأمون للتراث–دمشق، ١٩٨٨م، ص ٣٣.

[26] ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (حققه ووضع حواشيه) نبيل محمد عبد العزيز، مركز تحقيق التراث–القاهرة، ١٩٨٨، ١٢٠/٥؛ السخاوي، المصدر السابق، ١٢٦/٣.

التي عهدت إليه بالعديد من الوظائف الإدارية [٢٧]. ونظرا للمكانة الكبيرة التي كان يتبوأها البدر فقد وصفه السخاوي بأنه كان "رئيسًا وجيهًا" [٢٨]. كما أن ابن شاهين الظاهري يصفه بأنه كان "وجيهًا رئيسًا، أدوبًا حشمًا" [٢٩].

كانت وفاة بدر الدين بدمشق في ذي القعدة من عام ٨٧٨هـ/١٤٧٤م، ودفن بتربة أسرته[٣٠]. وكان له ابنان، هما إبراهيم ومحمد، بيد أن المصادر لا تمدنا بمعلومات كافية عن حياة إبراهيم، باستثناء الحديث عن تقلده لاحدى الوظائف الإدارية لبعض الوقت، كما أن وفاته كانت عام ٨٧٩هـ/١٤٧٥م، أي عقب موت أبيه مباشرة [٣١].

شمس الدين محمد بن بدر الدين حسن: كان مولده بمدينة القدس عام ٨٤٢هـ/٣٨-١٤٣٩م[٣٢]. وقد أصبح شمس الدين بعد ذلك من أعيان وكبراء مدينة دمشق، وكان لديه كثير من الأموال والممتلكات، كما كانت له مزرعة كبيرة، زارها المؤرخ ابن طوق عدة مرات، حيث تناول هناك العديد من أنواع الأطعمة والفواكه[٣٣]. بيد أنه من خلال رواية البصروي يتضح لنا أن شمس الدين لم يكن على نفس القدر والمكانة من البر والخير التي كان عليها والده وأفراد أسرته؛ إذ يذكر عنه هذا المؤرخ

---

27 السخاوي، المصدر السابق، ١٢٦/٣.
28 المصدر نفسه، ١٢٦/٣.
29 ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٩٤/٧.
30 السخاوي، المصدر السابق، ١٢٦/٣.
31 المصدر نفسه، ٤١/١.
32 نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، (وضع حواشيه) خليل المنصور، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٧م، ٣٧/١.
33 ابن طوق، التعليق (مذكرات كتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي ٨٨٥هـ-٩٠٨هـ)، (تحقيق) جعفر المهاجر، مطبوعات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، ٢٠٠٠م، ٣٥٨/١، ٤٧١.

أنه مع سعة ماله وكثرة ممتلكاته، إلا إنه كان يسيء معاملة أهله ويقتر على أولاده، ولم يعرف عنه حرصه على إخراج زكاة ماله أو التصدق على الفقراء، وإنما كان مشغولا بأموره الدنيوية، "ليس لديه فراغ للكلام مع أحد، لا غيبة ولا غيرها، ولا يتكلم أحد عنه إلا الكلام الضروري" [٣٤].

ويبدو أن الأموال الضخمة التي كان يمتلكها شمس الدين قد جعلته مطمعا للسراق، خاصة مع انعدام الأمن داخل دمشق أواخر العصر المملوكي؛ فيذكر ابن طولون أنه في شوال من عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م قام السراق بمهاجمة دار ابن المزلق، ورغم أنه لم يكن موجودًا بمنزله إلا إن هؤلاء السراق قاموا بالاعتداء على بوابه، وأخذوا صندوقا "فيه أشياء كثيرة وجليلة" [٣٥]. وقد توفي شمس الدين "مقتولا شهيدًا" بمدينة دمشق في التاسع عشر من شهر رجب عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، ودفن بتربتهم[٣٦]. أما عن سبب وفاته، فيقال إن جواريه قد تواطئوا عليه، واتفقوا مع ثلاثة من مماليك

---

[34] البصروي، المصدر السابق، ص ٢٠٧.

[35] ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، (وضع حواشيه) خليل المنصور، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٨م، ص ٢٦.
على أية حال، لم يقتصر أمر السرقة على شمس الدين فحسب، وإنما– بحسب روايات ابن طولون– حالة انعدام الأمن التي سادت المدينة آنذاك جعلت الأغنياء– وبصفة خاصة طبقة كبار التجار– هدفًا لهجمات واعتداءات السراق؛ فعلى سبيل المثال، يذكر لنا هذا المؤرخ أنه في شهر رجب من عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م نزل السراق على سوق التجار الموجود بمنطقة تحت القلعة، وذلك بالرغم من وجود والي المدينة، الذي جرح فرسه. (مفاكهة الخلان، ص ٤٤). كما أنه في شهر صفر من عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م هجم الحرامية على التاجر شمس الدين بن القونصي، وقاموا بذبحه بعدما استولا على أمواله. (المصدر نفسه، ص ٥٧). وفي شهر رجب من عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م هاجم السراق مرة أخرى سوق التجار، وأخذوا أموال التجار تحت تهديد السلاح. (المصدر نفسه، ص ١١٠).

[36] نجم الدين الغزي، المصدر السابق، ١/٣٧.

الحاجب الكبير[٣٧] تمربغا، الذين قاموا بالدخول عليه وقتله، ونهبوا كثيرًا من الأموال، التي اختلف الناس في تقديرها من كثرتها [٣٨].

٢. الشهرة التجارية لبني المزلق:

مع بداية عصر سلاطين المماليك البرجية[٣٩] ظهر لقب ومصطلح تجاري جديد وهو "الخواجكية"، الذي حل محل لقب "الكارمية"[٤٠]، وقد أطلق اللقب الجديد على

---

[37] الحاجب الكبير، ويسمى كذلك حاجب الحجاب، وكان يعبر عنه في ديوان الإنشاء "بأمير حاجب". وعادة من يتولى هذا المنصب الكبير والمهم أن يكون من مقدمي الألوف. والحاجب يقع في الرتبة الثانية من حيث المنزلة والأهمية بعد النائب؛ فإذا ما خرج النائب من دمشق في مهم أو تجريده كان هو نائب الغيبة عنه، وإذا ما أصدرت الأوامر السلطانية من القاهرة بعزل النائب والقبض عليه، كان كذلك الحاجب الكبير هو المسئول عن ذلك الأمر، كما أنه كان يدير أمور النيابة إلى أن يصل النائب الجديد. أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٨٥/٤.

[38] ابن طولون، المصدر السابق، ص ١٤١-١٤٢؛ البصروي، المصدر السابق، ص ٢٠٧؛ ابن إياس، المصدر السابق، ٣٥٩/٣.

[39] ينتمي المماليك البرجية (٧٨٤- ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٧م) إلى العنصر الجركسي الذي كان يعيش في بلاد الكُرْج، وهي المنطقةُ الواقعة شمال أرمينية بين البحر الأسود وبحر الخزر، وتُعرف اليوم بجمهورية جورجيا في منطقة القوقاز. وقد كان عدد الرقيق الجراكسة كثيراً في الأسواقِ خلال النصف الثاني من القرنِ السابع الهجري؛ ويعود هذا الأمر إلى كثرة السَّبي منهم؛ بسبب تعرضهم لهجمات مغول فارس والقبجاق، مما أدى إلى انخفاض أسعارهم، إلى جانب ما يتصفون به من جمال الشكل والقوة والشجاعة. تلك الصفات والمميزات جعلت السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) يعمد إلى الاستكثار منهم، والاعتماد عليهم، متخلياً عن العناصر التركية والتترية والتركمانية، وهي الأجناس التي كان ينتمي إليها مماليك عصره. وقد قام السلطان قلاوون بإسكان هؤلاء المماليك في أبراج القلعة، ولذا عرفوا بالبرجية تمييزًا لهم عن المماليك الأتراك الذين أُسكنوا في قلعة الروضة وعرفوا بالبحرية. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية-القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٥٩-٢٦٠؛ السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية-بيروت، ١٩٦٧، ص ٦٣-٦٤.

[40] ذكرت كلمة الكارم في بعض الوثائق بمعنى التجار، واستخدمت ايضا بمعنى السلع والبضائع التي يتجر فيها اولئك التجار الذين نسبوا إليها فعرفوا بالكارمية. فالكارمية؛ إذ هم فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الواردة الى مصر من الهند والشرق الأقصى عن طريق ثغور اليمن دون غيرها من الدول. ثم اطلقت=

طبقة التجار الكبار الذين دخلوا في علاقات وطيدة مع السلطة الحاكمة، وكانوا يزودون هذه السلطة بما تحتاجه من أموال، خاصة وأنه مع بدايات التحول إلى العصر الجركسي قد شهدت البلاد نوعًا من الصراعات والحروب الداخلية ما بين الأمراء، وهو الأمر الذي جعل السلطات المملوكية في حاجة ملحة للحصول على الأموال [٤١]. والشيء الجدير بالملاحظة هو أن هؤلاء الخواجكية لم يعودوا يشكلون طبقة لها مصالحها الخاصة المستقلة عن الدولة وسياستها، والتي تستطيع أن تقيم لها شبكة تجارية في مناطق وبلدان خارجية، كما كان الحال مع الكارمية، وإنما ارتبط الخواجكية بالنظام المملوكي، أو بمعنى آخر أصبحوا وكلاء لهؤلاء السلاطين، كما

=الكلمة على جميع من مارس التجارة الشرقية عمومًا والتوابل خصوصًاً في مصر. والواقع، أنه ليس هناك اتفاق أو رأي جازم في تفسير اسم "الكارم"، وإنما هناك العديد من الآراء والافتراضات التي دارت حول هذا الأمر؛ فهناك من يرجح قول القلقشندي أنه مأخوذ عن "الكانم" وهي منطقة من السودان الغربي تقع في وسط افريقيا، وحرف إلى كارم، وأطلق على تجار البهار المقيمين في مصر ونسبوا إليه. وهناك من يفترض أن اسم الكارم مأخوذ من كلمة "كواريما" الأمهرية وتعني الهيل أو الحبهان، ومن الجائز أيضاً أن ترد التسمية إلى العنبر وهو الكارم. وهناك فريق آخر يذهب للقول إن كلمة الكارم تتكون من مقطعين: كار بمعنى حرفة أو تجارة ويم بمعنى البحر، ويكون معناها: حرفة التجارة في البحر. وهناك تفسير آخر لمقطعي الكلمة يذهب إلى أن كار بمعنى سفينة أو مركب، وهي كلمة مصرية الأصل وردت في الكتابة المصرية منذ عصر الدولة الحديثة، ويم بمعنى نهر النيل كما ورد في القرآن الكريم، ويكون الكارم اسمًا مصريًّا محليًّا تعرف به المراكب النيلية، لكنه اتسع ليشمل السفن القادمة في البحر الأحمر. ومن المحتمل كذلك ان يكون الكارمية قد نسبوا إلى تاجر اسمه "كريم"، أو أنهم اشتهروا بصفة الكرم فنسبوا إليها. أنظر: عطية القوصي، "أضواء جديدة على تجارة الكارم"، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني والعشرون، مطبعة الجبلاوي– القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٧، ٢٥–٢٦؛ محمد عبد الغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢١–٢٧.

41 لابدوس، المرجع السابق، ص ٢١١–٢١٢.

أنهم– بخلاف الكارمية– لم يقتصر نشاطهم على تجارة الشرق، وإنما انخرطوا كذلك في علاقات تجارية مع التجار الأوربيين القادمين إلى المدن المصرية والسورية [٤٢].

وعند الحديث عن اختفاء طبقة تجار الكارم من أراضي الدولة المملوكية ينبغي علينا الإشارة إلى الصعوبات الكثيرة التي بدءوا يواجهونها بصفة خاصة منذ عهد السلطان الأشرف برسباي[٤٣]، الذي كانت لديه رغبة أكيدة في احتكار تجارة التوابل. وقد كانت البداية مع تحديد السلطان نفسه للأسعار التي تباع بها التوابل للتجار الغربيين، ثم في مرحلة تالية أخذ يطبق على تجار الكارم "سياسة ونظام الطرح"، وذلك بإلزامهم بشراء كميات من التوابل بأسعار محددة، وذلك من أجل زيادة الأرباح والفوائد التي تحصلها الدولة، ثم كانت المرحلة الأخيرة في عامي ٨٣٢هـ/١٤٢٨م و٨٣٣هـ/١٤٣٠م، عندما أصدر السلطان أوامره بمنع تعامل تجار الكارم مع التجار الأوربيين، وأن هؤلاء الغربيين لا يتعاملون إلا مع السلطات الحكومية للحصول على

---

[42] F. Apellaniz, Pouvoir et finance en Méditerrqnée pré–moderne : les deuxième etat mamelouk et le commerce des épices (1382–1517), Consejo superior de investigaciones cientificas, Barcelona, 2009, p. 104 ;

لابدوس، المرجع السابق، ص ٢١٢.

[43] هو السلطان برسباي الدقماقي الظاهري الذي يعود إلى أصول جركسية. كان من مماليك الأمير دقماق المحمدي وأهداه إلى الظاهر برقوق، فاعتقه واستخدمه في الجيش. وأخذ برسباي يترقى حتى تولى نيابة طرابلس الشام في عهد السلطان المؤيد شيخ. اعتقل بقلعة المرقب مدة طويلة ثم أطلق، ثم اعتقل بقلعة دمشق وعفا عنه السلطان ططر وقربه منه وجعله دوادارًا كبيرًا له بمصر. ولما توفي الظاهر ططر وبويع لابنه الصالح محمد تولى برسباي تدبير أمور الملك عدة أسابيع، ثم خلع الصالح وأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالملك الأشرف وذلك سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م، فأطاعه الأمراء وهدأت أمور الدولة في عهده. وقد قام برسباي بإنشاء العديد من المدارس والمؤسسات الاجتماعية. وعلي الصعيد الخارجي قام بغزو جزيرة قبرص وأخضعها لسلطانه بعد أن قام بأسر ملكها. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ٤٨/٢.

ما يحتاجونه من توابل وبهار[٤٤]. ولا شك أن تلك الإجراءات التي اتخذها برسباي قد أدت إلى تدهور أحوال تجار الكارمية، الذين لم يجدوا في أنفسهم القدرة على الدخول في منافسة مع السلطات المملوكية، فاضطر عدد منهم إلى ترك الأراضي المصرية، والاتجاه إلى بلاد اليمن أو السواحل الهندية لممارسة التجارة، أما الجزء الآخر فواصل عملياته التجارية في الأراضي المملوكية، لكن بعدما ارتضى أن يكون وكيلا للسلطان في تلك التجارة [٤٥].

ويعد بنو المزلق من أهم الأسر التي كانت تتاجر لحساب السلطة المملوكية؛ فشمس الدين محمد وابنه شهاب الدين أحمد لم يستطيعا الخروج على أوامر السلطان برسباي بممارسة التجارة لحسابهما الخاص في التوابل، وأصبحا من الوكلاء التجاريين

---

[44] المقريزي، المصدر السابق، ١٤٦/٧، ١٨٥، ٢٠٥؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ٤٢٣/٣، ٤٣٩؛

W. Fischel, "The Spice Trade in Mamluk Egypt", in Journal of the Economic and Social History of the Orient, 1:2, 1958, p. 172-173; E. Ashtor, "Le monopole de Barsbay d'après des sources vénitiennes", in Anuario de Estudios Medievales, No. 9, 1979, p. 558.

في هذا السياق يذكر المقريزي أنه في شهر جمادى الأولى من عام ٨٣٣هـ/١٤٣٠م حضر تجار الكارم من الأسكندرية إلى القاهرة بأوامر السلطان برسباي، "فأوقفوا بين يدي السلطان، وألزموا جميعهم أن لا يبيع واحد منهم شيئا من أصناف البضائع التي تجلب من الهند كالفلفل ونحوه لأحد من التجار الفرنج، وهددوا على ذلك". أنظر: السلوك، ٢٠٥/٧. كما أن ابن حجر يذكر في أحداث عام ٨٣٣هـ/٢٩-١٤٣٠م- الذي تفشى فيه الطاعون- أن العلماء والقضاة قد ذكروا للسلطان برسباي أن المظالم التي انتشرت في البلاد هي من أسباب وقوع هذا البلاء؛ وكان مما ذكره القاضي الشافعي أنه "قد تجدد في هذه السنة ثلاث مظالم: (أولها) التشديد على التجار الكارمية في بيع البهار للسلطان، وإلا منعوا من التجارة فيه ...". انظر: إنباء الغمر، ٤٣٩/٣.

[45] E. Ashtor, "The Venetian Supremacy in Levantine Trade : Monopoly or pre-Colonialisme?" in Studies on the Levantine Trade in the Middle Ages, ed. Variorum Reprints, London, 1978, p. 28; Ahmad Darrag, L'Egypte sous le régne de Barsbay, Institut français de Damas, 1961, p. 236.

لهذا السلطان داخل مدينة دمشق. وواقع الأمر أن الوثائق والعقود التجارية لمدينة البندقية– والتي تعود إلى عامي ٨٤٠-٣٩هـ/١٤٣٦م و٨٤٤-٤٣هـ/١٤٤٠م– تشير صراحة إلى ابن المزلق بوصفه "تاجر السلطان"، الذي كان له الحق– وحده دون غيره– في بيع التوابل للتجار الإيطاليين داخل دمشق [٤٦]. كما أن النعيمي يصف شمس الدين بن المزلق بأنه "رأس الخواجكية، تاجر الخاص الشريف" [٤٧].

مهما يكن من أمر، فإن الشهرة والمكانة الكبيرة التي نالتها أسرة بني المزلق، بالإضافة إلى الثروات الطائلة التي كانوا يمتلكونها، إنما تعود بالدرجة الأولى إلى مهنة التجارة التي كانوا يمارسونها، وبصفة خاصة من خلال التجارة مع بلاد الهند [٤٨]. فشمس الدين محمد– الذي "دخل في البحر" منذ وقت مبكر – ارتحل للعديد من البلدان في طلب التجارة، كما أنه استطاع في احدى تلك الرحلات– بحسب ما يرويه عن نفسه– أن يحقق مكسبًا وأرباحًا طائلة، وصلت قيمتها لمائة ألف دينار وثمانمائة ألف درهم، وبفضل تلك الصفقات التجارية "انفتحت الدنيا عليه"، وأصبح من الأثرياء [٤٩]. كما أن ابن تغري بردي أثناء حديثه عن ترجمة بدر الدين حسن بن المزلق يذكر أنه قد سلك طريق والده شمس الدين في الاشتغال بالتجارة، وأنه قد ارتحل للعديد من البلدان على رأس قوافله التجارية [٥٠]. ويشير السخاوي كذلك إلى أن البدر قد عمل

---

[46] E. Ashtor, Op. cit., p. 28.

[47] النعيمي، المصدر السابق، ٢/٢٢٣.

[48] E. Ashtor, Levant Trade in the Middle Ages, Princeton University Press, New Jersey, 1983, p. 281; M. Balard, “European and Mediterranean Trade Networks”, in The Cambridhe World History, Vol. V (Expanding Webs of exchange and conflict, 500–1500), edited by: Benjamin Kedar, Cambridge University Press, 2015, p. 264.

[49] النعيمي، المصدر السابق، ٢/٢٢٣-٢٢٤.

[50] ابن تغري بردي، المصدر السابق، ٥/١٢٠.

بالتجارة، "وجال الأقطار بسببها" [٥١]. وابن طولون– المؤرخ الدمشقي– أثناء حديثه عن التاجر برهان الدين إبراهيم بن مبارك شاه الأسعردي، يذكر أن هذا الأخير والخواجا شمس الدين بن المزلق كانا من أكابر التجار بدمشق، "ولهم المتاجر السائرة في البلدان" [٥٢].

ومن خلال رواية الفاسي يمكننا التأكيد كذلك على أن النشاط التجاري لبني المزلق لم يكن مقتصرًا على بلاد الشام فحسب، بل أصبح لهم تواجد ملموس داخل مكة؛ فقد كان لهم العديد من الوكلاء الذين يتاجرون لحسابهم داخل المدينة المقدسة، والذين كانوا كثيرا ما يتنقلون ببضائعهم ما بين بلاد الشام وبلاد الحجاز [٥٣]. ولعل الثراء الذي كان عليه بدر الدين بن المزلق، والأرباح الطائلة التي كان يحققها من وراء تجارته، هي التي جعلته مطمعًا لحاكم مكة، الذي كان يسعى للحصول على أموال منه ومن كبار التجار، الذين كانوا يصلون ببضائعهم إلى ميناء جدة ومدينة مكة؛ من ذلك ما قام به الأمير حسن بن عجلان بن رميثه الملقب ببدر الدين "أمير مكة ونائب السلطنة بالأقطار الحجازية"، الذي أصدر أوامره في شهر المحرم من عام ٨١٨هـ/١٤١٥م بالقبض على الخواجا بدر الدين، وقام بالتضييق عليه، ولم يتركه قبل أن يتحصل منه على مبلغ كبير من المال "يساوي ثلاثة وثلاثين ألف افرنتيا" [٥٤].

---

51 السخاوي، المصدر السابق، ١٢٦/٣.

52 ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الأول، (تحقيق) محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية–دمشق، (د.ت)، ص ١٢٨.

53 الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الجزء الرابع، (تحقيق) فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة–بيروت، ١٩٨٦م، ١٢٠/٤.

54 الفاسي، المصدر السابق، ١٢٠/٤.

الإفرنتي: يذكر المقريزي أن الإفرنتي عملة "من ضروب الفرنج"، وأنها تسمى كذلك "الذهب المشخص... وعليه شعار كفرهم الذي لا تجيزه الشريعة المحمدية"، كما أنه أشار إلى أن=

والواقع، إن النشاط التجاري الملحوظ لأفراد تلك الأسرة في العديد من بلدان الشرق جاء مؤيدًا كذلك برواية الغربيين؛ فأحد الرحالة والتجار الأوربيين- يدعى *Cyriaque d'Ancone*- يذكر أن الجيل الثاني من هذه الأسرة (أي أبناء شمس الدين) استمروا في زيارة مدن الساحل الهندي، وممارسة التجارة في تلك المناطق. هذا فضلا عن أن هذا التاجر الأوربي كان يعتزم السفر إلى بلاد الهند صحبة اثنين من أبناء شمس الدين، "اللذين كانا يتجهزان للخروج بتجارتهم باتجاه الساحل الهندي" [٥٥]. كما يذكر أشتور أن شمس الدين محمد بن المزلق قد قام بالسفر مرات عديدة إلى بلاد الهند، وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، "وقد حقق من وراء تلك التجارة أرباحا هائلة" [٥٦].

مهما يكن من أمر، فإنه عند الحديث عن الدور التجاري المهم الذي لعبه أفراد أسرة بني المزلق بوصفهم وكلاء للسلاطين المماليك في تجارتهم، ينبغي التأكيد على أن هذا الأمر لم يمنع بني المزلق من عقد صفقات تجارية لحسابهم الخاص؛ فالبيع والشراء لحساب السلطان برسباي- على سبيل المثال- كان يقتصر على تجارة التوابل، بينما يستطيع الوكيل أن يتاجر لحسابه في أي سلعة أخرى؛ فشمس الدين محمد بن المزلق إلى جانب اشتغاله بتجارة التوابل عمل كذلك في العديد من السلع التجارية الأخرى [٥٧]. وفي إحدى الوثائق الجنوية التي تعود إلى عام ٨٣٣-٨٣٤هـ/١٤٣٠م، هناك إشارة إلى قيام تاجرين جنويين بعقد عدد من الصفقات التجارية داخل دمشق مع شهاب الدين أحمد بن المزلق، الذي باع لهما عددا من الأحجار

=الأفرنتي قد شهد انتشارًا واسعًا في معظم بلدان الشرق كمصر وبلاد الشام والحجاز واليمن، خاصة منذ عام ٨٠٠هـ، "حتى صار النقد الرابح". انظر: المقريزي، المصدر السابق، ١٢٩/٧.

[55] Jean Colin, Cyriaque d'Ancone : le voyageur, le marchand, l'humaniste, Paris, 1891, p. 212-213.

[56] E. Ashtor, The Venetian Supremacy, p. 28.

[57] E. Ashtor, Op. cit., p. 29; E. Ashtor, Levant Trade, p. 281-282.

الكريمة [٥٨]. كما أن الوثائق البندقية تشير إلى أن المرجان والزعفران كانت من المنتجات التي قام شهاب الدين بجلبها إلى مدينة دمشق من إقليم قطالونيا. بل يمكننا القول إنه حتى في تجارة التوابل ذاتها، فإن وكلاء السلطان كانوا يستطيعون أن يتاجروا فيها لحسابهم الخاص ولكن بنسبة معينة؛ ففي إحدى الوثائق البندقية التي تعود إلى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي هناك إشارة إلى أن التجار البنادقة كانوا يقومون سنويًّا بشراء مائتي وعشرة أكياس من الفلفل: مائتان منها كانت تخص السلطان المملوكي، والعشر المتبقية كانت لحساب الوكيل الذي يتاجر باسم السلطان [٥٩].

ومن خلال الأرشيف البندقي يتبين بوضوح أن عائلة بني المزلق ارتبطت بعلاقات تجارية وثيقة مع التجار الأوربيين الذين كانوا يصلون إلى مدينة دمشق؛ فتشير إحدى تلك الوثائق إلى أن السلطان المؤيد شيخ[٦٠] كان قد قام في عام ٨١٢-٨١٣هـ/١٤١٠م ببناء خان داخل مدينة دمشق، وقد كان هذا الخان بمثابة فندق[٦١] لإقامة الجاليات

---

58 E. Ashtor, Levant Trade, p. 282; E. Ashtor, The Venetian Supremacy, p. 28; M. Balard, Op. cit., p. 264.

59 E. Ashtor, Le monopole de Barsbay, p. 561.

60 هو شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري، أصله من مماليك الظاهر برقوق، اشتراه من محمود شاه الأزدي وأعتقه واستخدمه في بعض أعماله. جعل مقدم ألف في عهد السلطان الناصر فرج، ثم نائبا لطرابلس ونائبا في الشام. أسره تيمورلنك في حلب، ثم سجنه الناصر فرج وأطلقه، فاتجه إلى بلاد الشام واشترك في حركة العصيان ضد السلطان إلى أن قتل الملك الناصر وولي السلطنة الخليفة العباس بن محمد سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، فجعله أتابكا للعسكر ومدبرا للملكة، وعاد معه إلى مصر. ثم ما لبث شيخ أن قام بخلع الخليفة وأعلن نفسه سلطانا في نفس العام، وتلقب بالملك المؤيد. وقد استمر حكمه لمدة ثماني سنوات وخمسة أشهر. انظر: الزركلي، المرجع السابق، ١٨٢/٣.

61 الفندق fondique هي كلمة مأخوذة من اللغة اللاتينية pandokeion، وقد دخلت إلى اللغة الإيطالية في العصور الوسطى تحت مسمى fondacho. أنظر:=

والتجار الأوبيين، كما أن بني المزلق قد قاموا بعقد العديد من الصفقات التجارية مع هؤلاء التجار الغربيين داخل هذا الخان [٦٢]. وفي وثيقة أخرى قام بكتابتها أحد تجار البنادقة المقيمين بمدينة دمشق عام ١٥-٨١٦هـ/١٤١٣م، هناك إشارة إلى أحد التجار الكبار ويدعى أحمد بن المزلق، وتؤكد تلك الوثيقة كذلك أن ابن المزلق قد قام بعقد عدد من الصفقات التجارية مع البنادقة، ويأتي القرنفل في مقدمة البضائع التي قام ببيعها لهم، وفي المقابل قام شهاب الدين بشراء كميات كبيرة من المنسوجات والأقمشة من هؤلاء البنادقة [٦٣]. كما أن هناك إشارات داخل هذه السجلات والوثائق تؤكد على أن أبناء بدر الدين حسن كانوا يقومون أحيانًا بإقراض التجار الغربيين الأموال التي كانوا يحتاجونها لإتمام عملياتهم التجارية داخل مدينة دمشق، وهو الأمر الذي يؤكد على أن الجيل الثالث من أسرة بني المزلق استمروا في لعب دور مهم في النشاط التجاري داخل المدينة، واستمرت علاقاتهم بالسلطة المملوكية والجاليات الغربية، وإن كان هذا النشاط- بطبيعة الحال- لا يمكن مقارنته بالجيلين الأولين [٦٤].

من ناحية أخرى، فإن الوثائق البندقية تشير كذلك إلى أن عقود البيع والشراء داخل مدينة دمشق لم تكن تتم في مكان بعينه، وإنما كانت تكتب في المكان نفسه الذي تتم فيه العملية؛

=E. Piloti, L'Égypte au commencement du XVe siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète, Le Caire, 1932, p. 77.

62 F. Appellaniz, Op. cit., p. 80.

63 E. Ashtor, The Venetian Supremacy, p. 28; E. Ashtor, Levant Trade, p. 282.
حقيقة الأمر أن معظم الوثائق البندقية التي تشير إلى النشاط التجاري لهذه الأسرة لا تحمل في الغالب سوى لقب هذه العائلة وهو "ابن المزلق"، من هنا فإن الباحث لا يستطيع الجزم إن كان المقصود هو شمس الدين محمد الأب أم ابنه شهاب الدين أحمد. انظر:
E. Ashtor, Levante Trade, p. 282.

64 F. Apellaniz, Op. cit., p. 139-140.

فإلى جانب الأسواق والقيساريات[٦٥]، التي غالبا ما كانت تشهد عملية البيع، كان كذلك الكتاب يتواجدون أحيانا في المنازل الخاصة بكبار التجار، ومنها بيت شمس الدين محمد بن المزلق [٦٦]. وتصف إحدى الوثائق القيسارية التي كان يمتلكها ابن المزلق بالفخامة والجمال، كما أن بابها كان مزينا بساعة رائعة، وفي المجمل كانت تعد هذه القيسارية واحدة من البنايات الرائعة التي أسسها أفراد هذه الأسرة في الطريق ما بين مصر وسوريا [٦٧]. وآخر ذكر لخان ابن المزلق في السجلات البندقية إنما يعود إلى عام ٨٩٦هـ/١٤٩١م؛ ففي وثيقة لأحد تجار البنادقة– ويدعى *Pietro Spiera* – ترجع إلى هذا التاريخ، يذكر هذا التاجر – الذي كان له اهتمام كبير بتجارة الماس والمجوهرات داخل دمشق– أنه قد قام بوضع بعض البضائع في خان ابن المزلق، وهي بضائع تشتمل على الأحجار الكريمة واللؤلؤ القادم من سواحل المحيط الهندي [٦٨].

والواقع أنه في بعض الأحيان كانت تنشأ منازعات بين بني المزلق وبين التجار البنادقة نتيجة الاختلاف في عمليات البيع والشراء، كما حدث مع شهاب الدين أحمد الذي وشى به البنادقة، وحرضوا السلطان المملوكي ضده؛ فتشير إحدى الوثائق البندقية إلى أنه ما بين عامي ٨٢٤هـ/١٤٢١ و٨٢٥هـ/١٤٢٢م قامت حكومة البندقية بإرسال سفارة إلى البلاط المملوكي بالقاهرة، وكان من بين موضوعات تلك الرسالة الشكوى من ابن المزلق، الذي تجاوز في حق

---

[65] القيسارية عبارة عن خان كبير يشغله التجار والمسافرون، وقد يشتمل على سوق مسقوفة، وقد شهدت انتشارًا واسعًا في العصر المملوكي. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٥٧.

[66] F. Apellaniz, "The Funduqs of Damascus seen by Frankish Notaries and Merchants", in Viatjar a l'Edat Mitjana, Travel in the Middle Ages, organized by Musée de Cluny, Paris, 2014, p. 267, 269.

[67] F. Apellaniz, Op. cit., p. 269.

[68] F. Apellaniz, Op. cit., p. 270.

التجار البنادقة بدمشق، وأوقع بهم المظالم [٦٩]. كما أن الشكوى تتضمن كذلك قيام شهاب الدين بتحذير التجار داخل دمشق من الدخول في صفقات تجارية مع البنادقة، وهو الأمر الذي ألحق ضررًا وخسائر كبيرة بتجار هذه المدينة الإيطالية. وفي محاولة منهم لإيغار صدر السلطان على ابن المزلق، أخبر السفراء البنادقة السلطان برسباي أن مثل هذه الأفعال ليست من حق أي أحد من المسئولين أو التجار، وإنما هي حق أصيل للسلطان المملوكي فحسب [٧٠].

بيد أن الشيء الملاحظ هو أنه رغم ما يمثله التجار البنادقة للسلطة المملوكية من أهمية من الناحية التجارية، إلا إن مكانة ومنزلة ابن المزلق جعلت هذه السلطة تقف إلى جانبه، ولا تسمع لمثل تلك الوشايات؛ فالوثائق التي دونت في وقت لاحق تشير إلى استمرار شهاب الدين في عقد الصفقات التجارية بدمشق كوكيل للسلطان برسباي؛ فعلى سبيل المثال تثبت هذه الوثائق قيام ابن المزلق ببيع الفلفل والزنجبيل للتجار الأوربين في الفترة من عام ٣٧-٨٣٨هـ/١٤٣٤م وحتى عام ٤٣-٨٤٤هـ/١٤٤٠م [٧١].

ويبدو أن حالة العداء ما بين ابن المزلق والبنادقة قد استمرت لسنوات لاحقة، وأن حكومة البندقية اضطرت لاتخاذ قرار بتعليق رحلاتها التجارية إلى الأسكندرية وبيروت في عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، والسبب في ذلك- كما ورد في إحدى وثائق الأرشيف البندقي- يعود إلى قيام وكيل السلطان المملوكي بدمشق- والذي كان آنذاك شهاب

---

[69] E. Ashtor, The Venetian Supremacy, p. 28; E. Ashtor, Levant Trade, p. 282; F. Apellaniz, Pouvoir et finance, p. 115.

[70] E. Ashtor, The Venetian Supremacy, p. 28; E. Ashtor, Levant Trade, p. 282.

[71] N. Jorga, Notes et Extraits pour servir à l'histoire des croisades au XVe siècle, Paris, 1902, p. 37.

الدين ابن المزلق– بإجبار التجار البنادقة على شراء الكيس (الحمل) *sporte*[٧٢] من التوابل بسعر مائة وثلاث دوكات[٧٣]، فلما اعترض هؤلاء التجار على تلك الأسعار المجحفة بحقهم، واحتجوا بعدم امتلاكهم للمال، تم إلقاء القبض عليهم، وسجنوا في قلعة دمشق [٧٤]. بل إن ابن المزلق– كما تذكر وثيقة بندقية أخرى تعود إلى عام ٨٤٦هـ/١٤٤٣م– الذي أراد أن يرد الصفعة للبنادقة، طالب القنصل البندقي بدمشق *Marin Zune* بضرورة تسديد الديون المستحقة على ثلاثة من تجار بلاده، ويدعون *François, Paul, Gabriel Barbadigo*، مهددا إياه بأنه في حالة رفضه أو مماطلته فإن السلطات المملوكية ستقوم بسجن ومصادرة أموال وبضائع كل البنادقة داخل المدينة. فما كان من الحكومة البندقية إلا أن طلبت من قنصلها إخبار ابن المزلق بموت أحد هؤلاء التجار، ومغادرة الثاني إلى جزيرة رودس، ومن ثمّ فليس من حقه المطالبة بديونهما، كما أن السلطات البندقية حذرت ابن المزلق من محاولة تهديد مصالح تجارها، أو التعدي على الامتيازات التي حصلوا عليها من السلطات

---

[72] غالبا ما كان يشار إلى كميات الفلفل التي كانت تباع في الأسواق المملوكية للتجار الغربيين باسم sportas، وهي تساوي ٢٢٥ كجم. أنظر:

E. Ashtor, “Profit from Trade with the Levant in the fifteenth Century”, in Bulletin of the School of Oriental and Africain Studies, University of London, Vol. 38, No. 2, 1975, p. 255.

[73] الدوكات هي العملة الذهبية الشهيرة لمدينة البندقية الايطالية في العصور الوسطى، وقد كانت هي العملة الأوربية الوحيدة المعترف والمتعامل بها داخل أراضي الدولة المملوكية. وقد بلغت تلك العملة شهرة كبيرة في ذلك الوقت حتى أنها وجدت لها سوقا رائجا في معظم بلدان الشرق. انظر:

E. Piloti, Op., cit, p. 49.

[74] N. Jorga, Op. cit., p. 37.

المملوكية. وعزم البنادقة كذلك على إرسال سفارة لبلاط السلطان الظاهر جقمق[٧٥] بالقاهرة للاعتراض والشكوى من أفعال ابن المزلق [٧٦].

من ناحية أخرى فإنه في عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م قامت الحكومة البندقية من جديد بمكاتبة السلطان جقمق، تشكو له ظلم وسوء معاملة وكلاء السلطان بدمشق لرعاياها، الذين كانوا مجبرين على شراء مائة وعشرة أكياس من الفلفل بأسعار جائرة، وبعد مرور شهر واحد فقط ألزموا كذلك بشراء ثلاثمائة كيس من الفلفل بذات الأسعار المرتفعة. ولما قام تجار تلك المدينة بالاعتراض على هذه الأسعار، مشككين أن تكون تلك الأوامر قد صدرت من السلطان المملوكي بالقاهرة، تعرضوا للحبس ومصادرة بضائعهم، وهو الأمر الذي اضطرهم إلى الموافقة على الشراء بتلك الأسعار، متكبدين خسائر بلغت أحد عشر ألف دوكات [٧٧].

---

[75] هو سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي الظاهري، جركسي الأصل. اشتراه علي بن اينال اليوسفي (العلائي) وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق فاعتقه واستخدمه. حبس في أيام الملك الناصر فرج، ثم أطلق وتولى العديد من المناصب في عهد السلطانين المؤيد شيخ والظاهر ططر. وقد وصل في أيام السلطان الأشرف برسباي إلى تولي "أتابك العساكر"، ولما مات هذا الأخير وتولى ابنه العزيز يوسف الحكم، استمر جقمق أتابكا ومدبرا للملكة. فلما ثار وخرج بعض المماليك على العزيز وقاموا بخلعه عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، ولوا جقمق أمور السلطنة، وظل في الحكم حتى وافته المنية بالقاهرة عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. انظر: الزركلي، المرجع السابق، ١٣٢/٢.

[76] N. Jorga, Op. cit., p. 120 ; E. Ashtor, Levant Trade, p. 282.

[77] N. Jorga, Op. cit., p. 194-195.

واقع الأمر أن الوثائق البندقية في تلك الأحداث لم تشر صراحة إلى اسم ابن المزلق إلا مرة واحدة، وفي بقية الأحداث كانت تذكر "عمال ووكلاء السلطان" أو المسئولين بدمشق، بيد أنه لما كان بنو المزلق هم الوكيل الأساسي والأشهر للسلطان المملوكي في تجارته بدمشق، لذلك فإنه يمكننا التأكيد على أن تلك الإشارات إنما كان يقصد بها بلا شك أفراد هذه الأسرة التجارية.

مهما يكن من أمر، فإنه بالنظر إلى موقف السلطات المملوكية من ابن المزلق– أثناء مشاحناته مع التجار الغربيين– ومقارنته بحادثة مشابهة وقعت مع أحد وكلاء السلطان المملوكي الأشرف قايتباي[٧٨] مع نهاية القرن التاسع الهجري، يمكننا ملاحظة المكانة الكبيرة التي تبوأها أفراد تلك الأسرة في ذلك الوقت؛ إذ إنه في شهر جمادى الأولى من عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م، قام ناظر الجيش بدمشق[٧٩] محب الدين سلامة بن يوسف الأسلمي– والذي كان كذلك وكيل السلطان في بيع البهار والتوابل– بالتعرض للتجار الغربيين، وضرب أحدهم بالقلعة. فاشتكى هؤلاء التجار للسلطان بالقاهرة من سوء معاملة محب الدين، وأخذه عشرة آلاف دينار منهم بدون وجه حق، وطلبوا منه أن يقوم بعزله من وظيفته، ويعين آخر مكانه يسمى تمربغا الترجمان، وذلك نظير منحه تلك الأموال التي تحصل عليه الناظر، بالإضافة إلى إعطائه مبلغا مماثلا، فما كان من السلطان قايتباي إلا إن استجاب لطلبهم، وقام بعزل الأسلمي من وظيفة نظارة الجيش ووكالة التوابل، وعين بدلا منه تمربغا [٨٠].

---

[78] هو السلطان أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي، كان من المماليك، اشتراه الأشرف برسباي وهو صغير، ثم انتقلت ملكيته إلى الظاهر جقمق، فاعتقه واستخدمه في جيشه. وأخذ قايتباي يتدرج في الوظائف حتى تولى "أتابك العساكر" في عهد الظاهر تمربغا عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م، فلما ثار المماليك على تمربغا وقاموا بخلعه في نفس هذا العام بايعوا قايتباي بالسلطنة. وقد كانت وفاته عام ٩٠١هـ/١٤٩٦م. انظر: الزركلي، المرجع السابق، ١٨٨/٥.

[79] ناظر الجيش بدمشق كانت مهمته التحدث في الإقطاعات؛ إما في كتابة مربعات تكتب بما يعينه النائب من الإقطاعات المتوفرة عن أصحابها بالموت، ثم يرسلها النائب إلى السلطان المملوكي بالقاهرة للتصديق عليها، وإما في إثبات المناشير السلطانية القادمة إليه من القاهرة بديوانه، حفظا لحسبانات المقطعين. وكان بديوان ناظر الجيش عدة مباشرين من صاحب ديوان وكتاب وشهود. وفي المجمل تعد وظيفة نظر الجيش من المناصب الجليلة، لذلك فإن التعيين في هذا المنصب كان يصدر من السلطان نفسه وليس من نائب دمشق. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٩٠/٤، ٦/١٢.

[80] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ١٠١.

٣. الوجاهة الاجتماعية وتقلد الوظائف:

نجح بنو المزلق في أن يؤسسوا لأنفسهم أسرة ذات نفوذ قوي، وهذا الأمر يعود في حقيقة الأمر إلى ما تمتع به أفراد هذه الأسرة من ذكاء ودهاء؛ فقد استفادوا كثيرا من وراء وقوفهم إلى جانب سلاطين دولة الجراكسة الناشئة في أوقات الشدة، ولم يتأخروا في إمدادهم بما يحتاجون إليه من أموال، كما أنهم لعبوا دورا مهمًّا في تمكين المماليك من فرض نفوذهم التجاري على السواحل والموانيء العربية للبحر الأحمر [٨١]. والواقع أن العلاقة القوية بين هذه الأسرة– وأمثالها من طبقة كبار وأعيان التجار– وبين السلطة المملوكية إنما تعود في أصلها إلى المصالح المتبادلة ما بين الطرفين؛ فقد عمد بنو المزلق إلى التعاون مع السلطة بغية المحافظة على منزلتهم الاجتماعية المرموقة داخل المجتمع من ناحية، ولحماية مصالحهم التجارية من ناحية أخرى. أما النظام المملوكي، فقد كان في حاجة ماسة لخدمات هؤلاء التجار، الذين كانوا بمثابة المحرك والوقود للحياة الاقتصادية داخل البلاد، وبفضل تجارتهم كان السلاطين يجنون كثيرًا من الأرباح، هذا فضلا عن الأموال الكثيرة التي كانوا يتحصلون عليها من هؤلاء التجار في وقت الأزمات [٨٢].

---

[81] F. Apellaniz, Pouvoir et finance, p. 81.

[82] لابدوس، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

والواقع أن السلطات المملوكية كانت تقدر وتثمن الدور المهم الذي كان يلعبه بنو المزلق في النهضة التجارية التي شهدتها السلطنة آنذاك، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع السلطان الناصر فرج بأن يكافيء شمس الدين بن المزلق، وذلك باعفائه من دفع الضرائب على تجارته التي يقوم بتصديرها أو استيرادها، والتي يقدر ثمنها بمائتي ألف درهم، "ولا يطالب عن ذلك بحق من الحقوق ولا بمقرر من المقررات، مسامحة باقية مستمرة، دائما أبدا مستقرة، لا ينتقض حكمها، ولا يغير رسمها، لخدمته الدول على اختلافها، ولمبالغته في التقرب بما يرضي الخواطر الكريمة، وينفع الناس بما يحضره من أنواع المتاجر وأصنافها، ولاستحقاقه لهذا الإنعام، ولاختصاصه به دون الخاص والعام". انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٣/٤٠.

وقد بدأت أسرة بني المزلق تقدم خدماتها للسلطة المملوكية منذ عهد السلطان الملك المؤيد شيخ؛ بل إن تلك العلاقة تعود إلى ما قبل اعتلاء هذا الأخير للسلطة، عندما كان أميرًا داخل مدينة دمشق، وربما في ضوء هذا الأمر يمكننا تفهم العلاقة الوثيقة التي ربطت بين تلك الأسرة وبين المؤيد شيخ بعد تبوأه لمنصب السلطنة بمصر[٨٣]. وعلى ذلك فقد أصبح بنو المزلق هم الأسرة الأكثر شهرة داخل دمشق طوال عهد السلطان المؤيد شيخ، وحتى بعد موت هذا السلطان فإن العلاقات الوثيقة ما بين هذه الأسرة وبين السلطات المملوكية لم تشهدا تغيرًا ملحوظا. وقد انتجت هذه العلاقة المميزة الثمرة المرجوة منها طوال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فبفضلها نال أفراد هذه الأسرة العديد من الوظائف المرموقة، وأصبحوا بحق من بين النخبة والصفوة داخل الدولة المملوكية [٨٤].

ورغم أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا ما يفيد أن مؤسس الأسرة شمس الدين بن المزلق قد تولى منصبًا مهمًّا داخل الدولة، إلا إن مكانته الكبيرة داخل المجتمع الدمشقي لم تكن محل شك، بل جاءت أقوال المؤرخين لتؤكد هذا الأمر؛ فالقلقشندي يشير إلى الألقاب الفخمة التي نعت بها شمس الدين بن المزلق في المرسوم الذي صدر له من نائب السلطنة بدمشق[٨٥] في عهد السلطان الناصر فرج[٨٦]، وهي ألقاب

---

[83] المقريزي، المصدر السابق، ٢٠٦/٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (قدم له وعلق عليه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٢م، ٢٢٠/١٥.

[84] F. Apellaniz, Op. cit., p. 81.

[85] كانت نيابة دمشق في العصر المملوكي تعد من أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها قدرا، ونائبها يضاهي النائب الكافل بالديار المصرية في الرتبة والألقاب والمكاتبة، وهو قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته. ولعل مما يدل على المكانة الكبيرة التي كان يتبوأها هذا النائب آنذاك ما يذكره القلقشندي من أن كبار الأمراء ببلاد الشام كانت اقطاعاتهم=

كان يخاطب بها الأمراء وكبار رجال الدولة، ومن تلك الألقاب التي ذكرت له: "الجناب العالي، الصدري، الكبيري، المحترمي، المؤتمني، الأوحدي، الأكملي، الرئيسي، العارفي، المقربي... شرف الأكابر في العالمين، أوحد الأمناء المقربين، صدر الرؤساء، رأس الصدور، عين الأعيان، كبير الخواجكية، سفير الدولة، مؤتمن الملوك والسلاطين" [٨٧]. كما أن المقريزي يذكر أنه لما أراد نائب دمشق الأمير شيخ المحمودي– قبل أن يتولى منصب السلطنة– القيام بجمع الأموال من تجار وقضاة دمشق في شهر ربيع الآخر عام ٨١١هـ/١٤٠٨م– وذلك أثناء الصراع الذي دار بينه وبين الأمير نوروز– عهد إلى شمس الدين– بما له من مكانة وبوصفه كبير التجار– القيام بجمع الأموال المطلوبة من التجار، والتي بلغت قيمتها خمسة آلاف دينار [٨٨].

كما أن شمس الدين وأمثاله من كبار التجار والأعيان كان لهم دور ملموس في الأحداث السياسية التي كانت تمر بها الدولة في ذلك الوقت؛ إذ إنه عندما خرج نائب

=تعادل ثلثي ما يخصص لكبار الأمراء بمصر، باستثناء نائب دمشق الذي كان إقطاعه يعادل اقطاعات الأمراء بمصر، نظرًا لمكانته وقربه من السلطان. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ٤/١٨٣-١٨٤.

[86] هو السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق من ملوك الجراكسة بمصر والشام، بويع فرج سلطانا بالقاهرة عقب وفاة أبيه عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م. وقد كان صغير السن فقام بتدبير أمور المملكة لمدة قصيرة الأتابكي أيتمش البجاسي. إلا إن نائب الشام امتنع عن المبايعة للناصر فرج، وانضم إليه نواب حلب وحماه وصفد وطرابلس وغزة؛ فخرج الناصر بالجيوش لقتالهم عام ٨٠٢هـ/١٤٠٠م، ودارت معركة بالرملة بفلسطين وتمكن الناصر من تحقيق الانتصار، ودخل دمشق وأعلن الأمان. وفي عهده عانت بلاد الشام من غزوة تيمورلنك عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م؛ حيث أحرقت ونهبت العديد من المدن، وقتل كثير من الأهالي. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ٥/١٤٠.

[87] القلقشندي، المصدر السابق، ١٣/٤٠.

[88] المقريزي، المصدر السابق، ٦/٢٠٦.

دمشق قاني باي عن طاعة السلطان المؤيد شيخ وأعلن العصيان، اجتمع أعيان مدينة دمشق كابن المزلق، والقاضي نجم الدين بن حجي، والقاضي شهاب الدين بن الكشك، وابن منجك وغيرهم، وأخذوا يتشاورون فيما سيفعلونه للتصدي لهذا العصيان، والإجراءات التي يمكن أن يتخذوها مخافة أن يقبض عليهم جاني بك، ثم ينهي ابن تغري بردي حديثه عن تلك الواقعة بقوله: "فإن كل واحد ممن كان اجتمع في ذلك المجلس يمكن أن يدبر مملكة سلطان، وينفذ أموره على أحسن وجه" [٨٩]. كما أن هذه الحادثة تكشف بوضوح التقارب والعلاقة الوثيقة التي ربطت ابن المزلق بالسلطان المؤيد شيخ، وما نتج عن ذلك من ارتفاع قيمة وقدر هذه الأسرة داخل الدولة بصفة خاصة في عهد هذا السلطان.

بيد أن الثروة الكبيرة التي كان يمتلكها شمس الدين، بالإضافة إلى مواقفه السياسية، كانت أحيانا تجعله عرضة وهدفا لأطماع السلطة؛ من ذلك قيام السلطان جقمق– في شهر المحرم عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م– بإصدار الأوامر بسجن شمس الدين في قلعة دمشق، وأن فك أسره كان مرهونا بحمل ثلاثين ألف دينار للخزانة [٩٠]، بالإضافة إلى عشرة آلاف دينار للديوان الخاص [٩١]. ولم يطلق سراحه إلا بعد أن قام أبناؤه بحمل خمسة آلاف دينار للخزانة وألف دينار للخاص [٩٢].

---

[89] ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١٥/٢٢٠.

[90] كانت توجد بدمشق خزانة سلطانية تخرج منها الانعامات والخلع للأمراء وأصحاب الوظائف في بلاد الشام. ونظر الخزانة بدمشق كان يعبر عنها بالخزانة العالية، ومتوليها يكون متحدثا في أمر التشاريف والخلع، وهي وظيفة جليلة، "يوليها النائب بتوقيع كريم". انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ٤/١٨٣، ١٩١.

[91] ديوان أو نظر الخاص بدمشق هي وظيفة موضوعها التحدث فيما يتعلق بالمستأجرتات السلطانية وغيرها من الأغوار، وربما أضيف نظرها للوزير. وبصفة عامة، تعد نظر الخاص وظيفة محدثة، وأول من أنشأها هو=

من ناحية أخرى، فإن الابن شهاب الدين أحمد رغم أنه لم ينخرط في مجال السياسة، ولم تكن لديه رغبة في تولى المناصب– كما أشير إلى ذلك مسبقا– إلا إن مكانته ومنزلته كانت كبيرة داخل دمشق؛ والواقع أن شرف بيت شهاب الدين وبقية أفراد أسرته من بني المزلق، وقيمتهم الكبيرة داخل المجتمع الدمشقي، يظهر لنا جليا من خلال حديث ابن طوق عن زواج سارة ابنة الشهاب أحمد على شيخ الإسلام تقي الدين بن قاضي عجلون في شهر رجب عام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م؛ فالشيء الملاحظ على عقود الزواج التي ذكرها هذا المؤرخ في مؤلفه أن قيمة الصداق تكون مرتفعة عندما تكون الزوجة منتسبة إلى عائلة شريفة ومن الأعيان كطبقتي كبار التجار والقضاة، وأنه بالرغم من أن قيمة هذا الصداق لم تكن تتجاوز المائة أشرفية ذهبا[٩٣] في معظم الحالات التي أوردها ابن طوق– والتي بلغ عددها مائة وخمسين عقدا– إلا إن صداق ابنة الشهاب كان مائتي أشرفية ذهبا؛ منها مائة وخمسون عاجلة، وتأخر لها من الصداق خمسون أشرفيا [٩٤].

=السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حين أبطل الوزارة. ولناظر الخاص أتباع من كتاب ديوان الخاص كمستوفي الخاص، وناظر الخزانة الخاص. انظر: المصدر نفسه، ٣٠/٤، ١٩٠.

[92] المقريزي، المصدر السابق، ٤٣٠/٧.

[93] الأشرفية أو الدينار الأشرفي هو العملة الذهبية التي تنسب للسلطان الأشرف برسباي. والواقع، إن العملة الأوربية التي كانت تسمى الافرنتي أو الدوكات– التي وصفها مؤرخو مصر المملوكية باسم "المشخصة"– شهدت انتشارا واسعا داخل مصر خاصة مع بدايات القرن التاسع الهجري، وتمتعت بسعر قانوني ثابت، وأصبحت هي النقد المرغوب فيه في التجارة بمصر. هذا الهجوم النقدي للدوكات الذهبية على الدنانير المملوكية أزعج السلطان برسباي، الذي أمر بضرب الدنانير الأشرفية بنفس وزن الافرنتي (٣.٤٥ جرام)، وأصدر أوامره عام ٨٢٩هـ/١٣٢٥م بإبطال التعامل بالدنانير المشخصة من الدوكات "بسبب صور الكفار عليها" وإحلال الأشرفية التي ضربت بالقاهرة محلها. أنظر: عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي–القاهرة، ١٩٦٤، ص ٩٧–١٠٠.

[94] ابن طوق، المصدر السابق، ١٥٨٩/٤؛ =

على أية حال، فإن أولى المناصب المهمة التي أسندت لهذه الأسرة كانت من نصيب بدر الدين حسن؛ إذ إن السلطات المملوكية– بعد نجاحها في فرض سيطرتها على مدينة جدة– قامت بمنح الإمرة داخل تلك المدينة لبدر الدين، وذلك عام ٨٤١هـ/١٤٣٨م، كما أنه أصبح مسئولا عن تأمين التجارة داخل البحر الأحمر [٩٥].

كما تقلد بدر الدين منصب نظارة الجيش بدمشق عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، وصارت إليه جميع الوظائف التي كانت بيد ناظر الجيوش زين الدين عبد الباسط بن خليل، الذي وافته المنية في شوال من هذا العام [٩٦]. وتولية ابن المزلق لهذا المنصب الرفيع إنما هو من قبيل مكافأة السلطان الظاهر جقمق له، نظير خدماته التي قدمها للسلطة آنذاك، بوصفه أولا واحدا من كبار التجار داخل الدولة، ثم– من ناحية أخرى– بفضل حسن إدارته للأمور داخل جدة، خاصة من

=Y. Ben-Bassat, Developing Perspectives in Mamluk History, Bril, Leiden, 2017, p. 183-184.

[95] السخاوي، المصدر السابق، ١٢٦/٣؛ المقريزي، المصدر السابق، ٣٤٨/٧؛ ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٢٠/٥؛ F. Apellaniz, Op. cit., p. 81.

والواقع أن ابن اياس يشير إلى تلك الوظيفة التي أسندت لبدر الدين على أنها "نيابة جدة". (بدائع الزهور، ١٨١/٢) وهو أمر يبدو صعب الحدوث، نظرا لعدم إشارة المؤرخين المذكورين آنفا لهذا الأمر (أطلقوا على الوظيفة "إمرة جدة")، ولأن وظيفة النائب في العصر المملوكي لم يكن يتولاها في معظم الأحوال سوى أرباب السيوف. وعلى ذلك فمن المرجح أن تكون تلك الوظيفة التي تولاها بدر الدين بجدة هي وظيفة إدارية، متعلقة بتنظيم التجارة وتقدير الضرائب المفروضة عليها. انظر:

F. Apellaniz, Op, cit., p. 81 ; Ahmad Darrag, Op, cit., p. 235.

[96] السخاوي، المصدر السابق، ١٢٦/٣؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١٢٠/٥؛ النعيمي، المصدر السابق، ١١٢/٢؛ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ص ٢٧٥.

وظيفة نظر الجيش موضوعها التحدث في أمر الإقطاعات بمصر وبلاد الشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها، وأخذ خطه. ويذكر القلقشندي أنها وظيفة مرموقة وعظيمة القدر. كما كان لناظر الجيش أتباع بديوانه، يتولون مناصبهم بأوامر سلطانية، مثل صاحب ديوان الجيش وكتابه وشهوده، وكذلك صاحب ديوان المماليك، وكاتب المماليك وشهود المماليك. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ٣٠/٤-٣١.

الناحية التجارية [٩٧]. والشيء الذي يمكن ملاحظته على تلك الوظيفة هو أن متوليها كان مستقلا عن الإدارة العسكرية الحاكمة داخل دمشق، لذلك كثيرا ما كان يتوجه بدر الدين حسن إلى القاهرة مركز السلطة، لإعطاء السلطان تقريرا عن أعماله، وأهم المسائل الخاصة بوظيفته [٩٨]. كما أن وصول بدر الدين إلى القاهرة، ومقابلته للسلطان كان دليلا على استمراره في شغل هذه الوظيفة، خاصة وأنه قد تكررت ولايته لها؛ لذلك كثيرا ما نجد تلك الزيارات متبوعة بقول المؤرخين المعاصرين: "وخلع عليه"، وكذلك "فاخلع السلطان عليه، وأقره على عادته " [٩٩].

مهما يكن من أمر، فإن العلاقات ما بين السلطات المملوكية وبين بدر الدين لم تكن ودية على طول الخط، وإنما كان يشوبها أحيانا بعض التوتر، وهو الأمر الذي كان يجعل من ابن المزلق عرضة للعقوبة والتوبيخ؛ من ذلك ما حدث عام ٨٦٧هـ/١٤٦٢م عندما استدعي هذا الأخير للقاهرة، فسجن بها "وجرت عليه محنة"، ولم يتخلص من تلك العقوبة إلا بعدما تعهد بحمل مبلغ كبير من المال للسلطان الظاهر خشقدم[١٠٠]، وعندئذ صدر العفو السلطاني عنه، بل وأعيد مرة أخرى لوظيفته. وقد أشار ابن شاهين إلى هذا الأمر بقوله: "وقاسى أهوالا بآخره" [١٠١].

---

[97] F. Apellaniz, Op. cit., p. 131.

[98] ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١٢٠/٥؛ F. Apellaniz, Op. cit., p. 131

[99] ابن اياس، المصدر السابق، ٣٥١/٢؛ ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٥٢/٦، ٩٤/٧.

[100] هو أبو سعيد سيف الدين الظاهر خشقدم الناصري المؤيدي، كان مملوكا للخواجه ناصر الدين– وإليه نسبته– ثم اشتراه منه المؤيد شيخ واعتقه واستعمله. ثم عينه السلطان الظاهر جقمق "مقدم ألف" في دمشق عام ٨٥٠هـ، وفي عهد الأشرف اينال تولى "أمير سلاح"، ثم ولاه المؤيد أحمد "أتابكية العساكر"، وهي أعلى الرتب في الدولة. ولما ثار المماليك على المؤيد أحمد وخلعوه عام ٨٦٥هـ/١٤٦١م نادوا بسلطنة خشقدم، الذي ظل في الحكم حتى وفاته بالقاهرة عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م. انظر: الزركلي، المرجع السابق، ٣٠٥/٢–٣٠٦.

[101] ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ١٥٤/٦، ٩٤/٧.

كما تذكر لنا المصادر التاريخية أن إبراهيم بن بدر الدين حسن قد استقر في نظر الجوالي [١٠٢] في حياة أبيه، إلا إنه قدم إلى القاهرة هو وأخوه محمد بعد وفاة أبيهما، والتمسا من السلطة المملوكية إعفاءهما من الوظائف. وربما هذا الأمر يعود إلى خوفهما من نتائج القرب من السلطة، خاصة وأن المحنة التي مر بها أبوهما لم تكن غائبة عن ناظريهما [١٠٣]. بيد أن المؤرخين يشيرون كذلك إلى اقتراب شمس الدين محمد من السلطة مرة أخرى، وقيامه بزيارة البلاط السلطاني بالقاهرة، وقد وصل إلى دمشق في إحدى المرات– في شهر ربيع الأول عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م– بخلعة من السلطان الأشرف قايتباي، "وهي خلعة رضا" [١٠٤]. ويبدو أن علاقة ابن المزلق بنائب دمشق لم تكن في ذلك الوقت على ما يرام؛ إذ يذكر ابن طوق أن شمس الدين لما لبس هذه الخلعة لم يقابله أو يجتمع به النائب، وإنما "أرسل إليه صرة بها ثياب فحسب" [١٠٥]. كما أن ابن طولون يذكر حادثة أخرى تؤكد حالة الخصام التي كانت سائدة بين شمس الدين والنائب؛ ففي شهر ربيع الثاني من عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م استدعى نائب دمشق قانصوه اليحياوي ابن المزلق، وطلب منه إمداده بأموال لتجهيز الجند الخارجين في إحدى التجريدات، بيد أن شمس الدين رفض هذا الأمر محتجا بأنه "ما جرى بهذا عادة"، فما كان من قانصوه إلا إن أمر باستدعائه إلى القلعة وأن يسجن بها، ورغم أن النائب قد ندم على فعلته، وأمر بإخراجه من السجن، إلا إن ابن المزلق رفض الخروج حتى يأتي مرسوم السلطان قايتباي، "فلم تزل الأكابر به إلى أن خرج" [١٠٦].

---

[102] ناظر الجوالي مهمته الإشراف على جباية الجزية، واستخراجها من أهل الذمة. انظر: مصطفى الخطيب، المرجع السابق، ص ٤٩.

[103] السخاوي، المصدر السابق، ٤١/١.

[104] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ٤٨.

[105] ابن طوق، المصدر السابق، ١٥٤/١.

[106] ابن طولون، المصدر السابق، ص ١٠٠.

وقد أسند إلى شمس الدين منصب قاضي قضاة الشافعية بدمشق[١٠٧] عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م في عهد السلطان قايتباي، وذلك بعد عزل القاضي شهاب الدين بن الفرفور من هذا المنصب، وقد لبس شمس الدين "خلعة القضاء" في شهر رجب من هذا العام [١٠٨]. ورغم أن شمس الدين لم يستمر في هذا المنصب أكثر من عام؛ إذ صدرت الأوامر في شهر جمادى الأولى عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م بإعادة ابن الفرفور لتولي قضاء الشافعية، إلا إن السلطان عوض شمس الدين بمنصب كتابة السر بدمشق[١٠٩]، "وأن ابن المزلق يجلس فيها بدار العدل فوق القاضي الحنفي" [١١٠].

---

[107] كان بدمشق- كالديار المصرية- أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، أعلاهم الشافعي، وهو المتحدث على الموازع الحكمية والأوقاف وأكثر الوظائف، كما أنه أختص بتعيين النواب بجميع أعمال دمشق، ويليه في الرتبة الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي. ولما كانت وظيفة قضاء القضاة من أجل وأرفع الوظائف الدينة فإن السلطان اختص نفسه بتعيين من يتولى هذا المنصب. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ١٩٢/٤.

[108] ابن طولون، المصدر السابق، ص ٥٥-٥٦؛ ابن اياس، المصدر السابق، ٢٠٩/٣؛ ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٣٨٣/٧؛ ابن طوق، المصدر السابق، ٣٨٠/١.

[109] يعبر عن متولي كتابة السر بدمشق في ديوان الإنشاء بالقاهرة "بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس"، وهي وظيفة تضاهي كتابة السر بالديار المصرية من حيث المكانة ورفعة القدر. وموضوع تلك الوظيفة هو قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. وصاحب تلك الوظيفة كان يولى مباشرة من السلطان المملوكي، وقد كان السلطان حريصًا على أن يكون كاتب السر بدمشق من خاصته الموثوق بهم، "ليطالعه بخفيات أمور المملكة، وما يحدث بها مما لعل النائب قد يخفيه عن السلطان". انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ٣٠/٤، ١٨٩.

[110] ابن طولون، المصدر السابق، ص ٦٠-٦١؛ ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٤١٨/٧؛ ابن طوق، المصدر السابق، ٤٨١/١.

بيد أن ابن طوق يشير إلى أن شمس الدين قد تمكن من الحصول على منصب القضاء الشافعي بعدما قام بدفع مبلغ يصل لعشرة آلاف أشرفية [١١١]. والواقع أن ظاهرة الحصول على منصب القضاء وغيره من الوظائف الأخرى داخل الدولة عن طريق بذل الأموال قد تفشت بصورة كبيرة خاصة مع نهاية العصر المملوكي، وإذا ما طالعنا مؤلفات المؤرخ الدمشقي المعاصر ابن طولون فسنجد أمثلة لا حصر لها لهذا الأمر [١١٢]. وقد أكد هذا المؤرخ صراحة على أن منصب القضاء– مع مكانته العظيمة وعلو قدره– كان ينال عن طريق الرشوة ودفع الأموال لأهل السلطة، ذاكرًا: "ومنهم من يتولى بالرشوة، فإذا عوتب عليه يدعي أنما بذله صونا للمنصب من وقوعه في أيدي الجهلة، والله لا يخفى عليه شيء" [١١٣].

---

111 ابن طوق، التعليق، ١/٣٨٠.

112 انظر على سبيل المثال: مفاكهة الخلان، ص ٢٩–٣٠، ٣٤، ٣٦، ٥٥.

113 ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، (تحقيق) محمد أحمد دهمان، (راجعه) نزار أباظة، دار الفكر العربي المعاصر–بيروت، ١٩٩٢م، ص ٤٥.

خاتمة البحث

من خلال هذه الدراسة التي تعرضت لأسرة بني المزلق داخل مدينة دمشق خلال القرن التاسع الهجري، نستطيع أن نجمل أهم نتائج البحث فيما يلي :

- احتلت فئة كبار التجار مكانة مميزة داخل المجتمع المملوكي، الذي كان يقوم بصفة أساسية على فكرة الطبقية؛ فقد استطاع هؤلاء التجار أن يلعبوا دورًا رئيسًا في جلب الأموال لخزينة الدولة، وهو الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يسعون إلى التقرب منهم، كما كانوا يخصونهم بحسن معاملة واحترام كبير، وبفضل ذلك الأمر نالت تلك الطبقة مكانة ومنزلة بارزة في مختلف المدن المملوكية في مصر وبلاد الشام.
- ارتبط ظهور وعلو نجم أسرة بني المزلق في مدينة دمشق بالتجارة، خاصة بعدما أصبح أفراد هذه الأسرة هم الوكلاء التجاريون الرسميون للسلطة المملوكية في مدينة دمشق، وبفضل تلك التجارة نجحوا في امتلاك الثروات الكبيرة، التي جعلتهم من أشهر أعيان المدينة آنذاك.
- رغم أن بني المزلق أصبحوا وكلاء السلطة المملوكية، إلا إن ذلك لم يمنعهم من عقد عدد من الصفقات التجارية لحسابهم الخاص؛ فالبيع والشراء لتلك السلطة إنما اقتصر على تجارة التوابل، وعلى ذلك فقد استطاع بنو المزلق المتاجرة في العديد من السلع التجارية الأخرى، كالمرجان والزعفران والأحجار الكريمة.
- إلى جانب تجارتهم مع بلدان الشرق، ارتبط بنو المزلق كذلك بعلاقات تجارية مع العديد من التجار الغربين، بصفة خاصة البنادقة، ولم تخل تلك العلاقات من ظهور بعض الخصومات والمنازعات ما بين الطرفين، وقد ظهر ذلك الأمر جليا من خلال الوثائق والأرشيف البندقي. بيد أن الشيء اللافت للنظر في هذا الأمر

هو وقوف السلطة المملوكية إلى جانب بني المزلق، وذلك رغم ما تمثله مدينة البندقية من أهمية تجارية لتلك السلطة، وهو الأمر الذي يبين بوضوح المكانة المتميزة التي تبوأتها تلك الأسرة داخل الدولة المملوكية.

- نجح بنو المزلق في أن يؤسسوا لأنفسهم أسرة ذات نفوذ قوي داخل المجتمع الدمشقي، حتى أنهم عدوا من كبار أعيان المدينة خلال القرن التاسع الهجري. تلك المنزلة الرفيعة التي احتلتها هذه الأسرة إنما تعود للعلاقات الطيبة التي ربطت بينها وبين السلطة الحاكمة، وذلك بفضل ما قدموه لتلك السلطة من خدمات جليلة وأموال أثناء مواجهة الأزمات والصعاب.
- تمكن بنو المزلق من شغل عدد من الوظائف الإدارية والدينية المهمة داخل الدولة المملوكية، وكان ذلك بمثابة الثمرة التي نجحوا في حصدها من وراء الخدمات التي قدموها للسلطة الحاكمة؛ فالبداية كانت مع بدر الدين حسن الذي تقلد منصب الإمارة بجدة، ثم نظارة الجيش بدمشق، وأخيرا كتابة السر بالمدينة نفسها. كما أن ابنه شمس الدين محمد نال منصب قاضي قضاة الشافعية بدمشق، فضلا عن تولي ابنه الآخر إبراهيم لمنصب نظر الجوالي.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر والمراجع العربية:

ابن اياس (محمد بن أحمد)، *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ١٩٨٣–١٩٨٤.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، *المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي*، (حققه ووضع حواشيه) نبيل محمد عبد العزيز، مركز تحقيق التراث–القاهرة، ١٩٨٨.

------، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، (قدم له وعلق عليه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٢م.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد)، *إنباء الغمر بأبناء العمر*، (تحقيق) حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي–القاهرة، ١٩٧٢م.

ابن شاهين الظاهري (زين الدين عبد الباسط بن خليل)، *نيل الأمل في ذيل الدول*، (تحقيق) عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية–بيروت، ٢٠٠٢م.

ابن طوق (شهاب الدين أحمد)، *التعليق (مذكرات كتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي ٨٨٥هـ–٩٠٨هـ)*، (تحقيق) جعفر المهاجر، مطبوعات المعهد الفرنسي للدراسات العربية–دمشق، ٢٠٠٠م.

ابن طولون الصالحي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد)، *القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية*، القسم الأول، (تحقيق) محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية–دمشق، (د.ت).

------، *مفاكهة الخلان في حوادث الزمان*، (وضع حواشيه) خليل المنصور، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٨م.

------، *نقد الطالب لزغل المناصب*، (تحقيق) محمد أحمد دهمان، (راجعه) نزار أباظة، دار الفكر العربي المعاصر–بيروت، ١٩٩٢م.

ابن العماد الحنبلي (شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد)، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، المجلد التاسع، (تحقيق) محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير–بيروت، ١٩٩٣م.

الأشقر (محمد عبد الغني)، *تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي*، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ١٩٩٩م.

البصروي (علاء الدين علي بن يوسف)، *تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة ٨٧١هـ لغاية ٩٠٤هـ)*، (تحقيق) أكرم العلبي، دار المأمون للتراث–دمشق، ١٩٨٨م.

الخطيب (مصطفى عبد الكريم)، معجم *المصطلحات والألقاب التاريخية*، مؤسسة الرسالة–بيروت، ١٩٩٦م.

الزركلي (خير الدين)، *الأعلام*، دار العلم للملايين–بيروت، ٢٠٠٢م.

السخاوي (شمس الدين محمد عبد الرحمن)، *التبر المسبوك في ذيل السلوك*، الجزء الأول، (تحقيق) نجوى مصطفى كامل، لبيبة إبراهيم مصطفى، (مراجعة) سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية–القاهرة، ٢٠٠٢م.

------، الضوء *اللامع لأهل القرن التاسع*، دار الجيل–بيروت، ١٩٩٢م.

الشهابي (قتيبة)، *أبواب دمشق وأحداثها التاريخية*، منشورات وزارة الثقافة–دمشق، ١٩٩٦.

عاشور (سعيد عبد الفتاح)، *الأيوبيون والمماليك في مصر والشام*، دار النهضة العربية–القاهرة، ١٩٩٦م.

------، *العصر المماليكي في مصر والشام*، دار النهضة العربية–القاهرة، ١٩٧٦م.

------، *المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك*، دار النهضة العربية–القاهرة، ١٩٩٢م.

العريني (السيد الباز)، *المماليك*، دار النهضة العربية–بيروت، ١٩٦٧.

الغزي (نجم الدين محمد)، *الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة*، (وضع حواشيه) خليل المنصور، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٧م.

الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي)، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، الجزء الرابع، (تحقيق) فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة–بيروت، ١٩٨٦م.

فهمي (عبد الرحمن)، *النقود العربية ماضيها وحاضرها*، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي–القاهرة، ١٩٦٤م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد)، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، مطبعة دار الكتب المصرية–القاهرة، ١٩٢٢م.

القوصي (عطية)، "أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة"، مقال *بالمجلة التاريخية المصرية*، المجلد الثاني والعشرون، مطبعة الجبلاوي–القاهرة، ١٩٧٥م.

لابدوس (ايرا)، *مدن إسلامية في عهد المماليك*، (نقله إلى العربية) على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع–بيروت، ١٩٨٧م.

المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي)، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٧م.

النعيمي (عبد القادر بن محمد)، *الدارس في تاريخ المدارس*، (أعد فهارسه) إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٠م.

ثانيًا: المصادر والمراجع الغربية:

Appellaniz (**Francisco Javier**), *Pouvoir et finance en Méditerrqnée pré-moderne : les deuxième etat mamelouk et le commerce des épices (1382-1517)*, Consejo superior de investigaciones cientificas, Barcelona, 2009.

--------, "The Funduqs of Damascus seen by Frankish Notaries and Merchants", in *Viatjar a l'Edat Mitjana, Travel in the Middle Ages*, organized by Musée de Cluny, Paris, 2014, pp. 266-270.

Ashtor (**Eliyahu**), "Le monopole de Barsbay d'après des sources vénitiennes", in *Anuario de Estudios Medievales*, No. 9, 1979, pp. 551-572.

--------, *Levant Trade in the Middle Ages*, Princeton University Press, New Jersey, 1983.

--------, "Profit from Trade with the Levant in the fifteenth Century", in *Bulletin of the School of Oriental and Africain Studies*, University of London, Vol. 38, No. 2, 1975, pp. 250-275.

--------, "The Venetian Supremacy in Levantine Trade : Monopoly or pre-Colonialisme?" in *Studies on the Levantine Trade in the Middle Ages*, ed. Variorum Reprints, London, 1978, pp. 5-53.

Balard (**Michel**), "European and Mediterranean Trade Networks", in *The Cambridge World History, Vol. V (Expanding Webs of exchange and conflict, 500-1500)*, edited by: Benjamin Kedar, Cambridge University Press, 2015, pp. 257-286.

Ben-Bassat (**Yuval**), *Developing Perspectives in Mamluk History*, Bril, Leiden, 2017.

Colin (**Jean**), *Cyriaque d'Ancone : le voyageur, le marchand, l'humaniste*, Paris, 1891.

Cytryn-**Silverman** (**Katia**), *The Road Inns (Khans) in Bilad al-Sham*, Oxford, 2010.

Darrag (**Ahmad**), *L'Egypte sous le règne de Barsbay*, Institut français de Damas, 1961.

Fischel (**Walter**), "The Spice Trade in Mamluk Egypt", in *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, 1:2, 1958, pp. 157-174.

Jorga (**N.**), *Notes et Extraits pour servir à l'histoire des croisades au XVe siècle*, Paris, 1902.

Piloti (**Emmanuel**), *L'Égypte au commencement du XVe siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète,* Le Caire, 1932.